# شخصية الحلي

إتماماً للبحث والتحقيق في بديعية الحلي وشخصيته الشاعرة، لا بد لنا ـ هنا ـ من أن نمرّ على شيء مما يتعلق بحياة هٰذا الرجل واتجاهه الشعري، في عصره.

فالحلي، هو عبدالعزيز بن سرايا بن علي بن أبي القاسم بن أحمد بن نصر بن أبي العز بن سرايا بن باقي بن عبدالله بن العِرِّيض السنبسي الطائي صفي الدين[1].

فهو عربي أرومةً، من سنبس الطائية.

ولد صفي الدين الحلي ـ كما يقول الكتبي ـ: «يوم الجمعة، خامس شهر ربيع الآخر، سنة سبع وسبعين وستمئة»[2]، في مدينة الحلة ـ في العراق ـ، في أسرة من (سنبس)، فرع من قبيلة طيّء العربية، وكان أعمامه وأخواله ممن يتزعمون في سنبس، ولهم مواقع ومعارك مشهورة كانوا يبلون فيها البلاء الحسن، ولذٰلك تغنى الشاعر بمفاخر أخواله وكان على رأسهم جلال الدين بن المحاسن الذي نظم فيه وهو صبي جملةً من القصائد يحرضه على خوض المعارك، ومن ذٰلك قوله ـ وهو في صباه ـ يحرض خاله الصدر جلال الدين بن محاسن على أخذ ثأره من أعدائه في إحدى الوقائع:

ألست ترى ما في العيون من السقم ... لقد نحل المعنى المدفق من جسمي
وأضعف ما بي بالخصور من الضنا ... على أنها من ظلمها غصبت قسمي

---

(١) انظر في ترجمته: في «الدرر الكامنة»: ٢/٣٦٩ـ٣٧١، و«البلغة»: ٩٠ـ١٠٠، و«فوات الوفيات»: ١/٥٧٩ـ٥٩٤، و«النجوم الزاهرة»: ١٠/٢٣٨، و«ريحانة الأدباء»: ٣/٣١٢، و«سفينة البحار»: ٢/٣٧، و«شعراء الحلة»: ٣/٢٧٠، و«روضات الجنات»: ٥/٨٠ـ٨٣ وغيرها.

(٢) «فوات الوفيات»: ١/٥٨٠.

ثم يقول بعد هٰذا الغزل متخلصاً:

ألم تشهدي أني أمثل للعدى ... فتسهر خوفاً أن تراني في الحلم
فكم طمعوا في وحدتي فرميتهم ... بأضيق من سمٍّ وأقتل من سمّ

. . . . . .

ولو جحدوا فِعْلي مخافةَ شامتٍ ... لثمّ عليهمْ في جباههِمُ وسمي
فكيف ولم ينسب زعيم لسنبس ... إلى المجد إلا كان خاليَ أو عمي

. . . . . .

ملاذي جلال الدين نجل محاسنٍ ... حليف العفاف الطلق والنائل الجمِّ
فتًى خلقت كفّاه للجود والسطا ... كما العين للإبصار والأنف للشمّ

وهي قصيدة طويلة[1] في أربعين بيتاً، تدلّ على عمق التجربة الشعرية، وهو بعد لم يزل صبياً في عنفوان أيام شبابه.

وعلى الرغم من هٰذا الحماس المتأجج في نفس الشاعر، إلا أنه لم تَرُقْ له هٰذه الحالُ، من الحروب والوقائع، والصدامات العنيفة بين قبيلته وأعدائها، مما اضطره إلى التفكير في ترك الحلة، وانتجاع مواطن غيرها لعله يرى فيها راحته واطمئنانه بعيداً عن النزاعات والصدامات المسلحة.

وكان الحافز الكبير في دفع الشاعر إلى الهجرة عن دياره في العراق هو قتل خاله صفي الدين بن محاسن غيلة وهو في صلاته. وحدوث فتن وقلاقل بين طيء وسائر القبائل المجاورة، يشير إلى ذٰلك بقوله: «ثم جَرَتْ بالعراق حروب ومحن، وطالت خطوب وإحن، أوجبت بُعْدي عن عريني، وهجر أهلي، وقريني. بعد أن تكمل لي من الأشعار، ما سبقني إلى الأمصار، وحدَّث به الركبان في الأسفار..»[2].

وعبارته الأخيرة تشير بوضوح إلى التبكير في نيل الشهرة بالشعر، في مطلع حياته،

---

(١) انظرها في ديوانه: ط: العراق: ص١١-١٣.

(٢) مقدمة ديوانه: ط: العلمية: ص٦.

وكان يومئذ قد نيف على عشرين عاماً من عمره، أي في حدود سنة (٧٠٠هـ)، وكان لحادثة قتل خاله صفي الدين المذكور أثر كبير في نفسية الشاعر الشاب، فنظم قصيدته (سل الرماح) يفتخر بقومه الذين أخذوا بثأر خاله الصفي بن محاسن من آل أبي الفضل، سنة (٧٠١هـ)، يقول:

سلي الرماح العوالي عن معالينا ... واستشهدي البيض هل خاب الرجا فينا
وسائلي العرب والأتراك ما فعلت ... في أرض قبر عبيدالله أيدينا
لما سعينا فما رقت عزائمنا ... عما نروم ولا خابت مساعينا
يا يوم وقعة زوراء العراق وقد ... دنا الأعادي كما كانوا يدينونا
بضمّر ما ربطناها مسومة ... إلا لنغزو بها من بات يغزونا

ثم يمدح قومه بقوله:

قوم إذا استخصموا كانوا فراعنةً ... يوماً وإن حكموا كانوا موازينا
تدرعوا العقل جلباباً فإن حميت ... نار الوغى خلتهم فيها مجانينا
إذا ادّعوا جاءت الدنيا مصدقةً ... وإن دعوا قالت الأيّام آمينا
. . . . . .
إنا لقوم أبت أخلاقنا شرفاً ... أن نبتدي بالأذى من ليس يؤذينا
بيض صنائعنا، سود وقائعنا ... خضر مرابعنا، حمر مواضينا
لا يظهر العجز منا دون نيْل منًى ... ولو رأينا المنايا في أمانينا
. . . . . .
كم من عَدُوٍّ لنا أمْسى بسَطْوَتِهِ ... يُبْدي الخضوعَ لنا ختلاً وتسكينا
كالصّلِّ يُظهر لينا عند مَلْمَسِهِ ... حتّى يصادفَ في الأعضاءِ تمكينا
. . . . . الخ[1].

ولم يكف الشاعر عن ذكر هٰذه الوقعة وذكر خاله المقتول في قصائد أخرى،

---

(١) الديوان: ط: العراق: ص١٣-١٤.

كقصيدته اللامية في (وقعة الزوراء) التي ذكرها في الأبيات المتقدمة، يقول:

لمن الشوازبُ كالنعام الجفَّل كُسِيَتْ حلالاً من غُبارِ القَسْطل
يبرزن في حلل العجاج عوابساً يحملن كل مدرّع ومسَربل

فيذكر خلالها الصدر بقوله:

ما زال صدر الدست صدر الرتبة الـ ـعلياء صدر الجيش صدر المحفل
لو أنصفته بنو محاسن إذ مشوا كانت رؤوسهمُ مكان الأرجل
بينا تراه خطيبهم في محفل رحب، تراه زعيمهم في جحفل[1]

وظل الحلي يذكر خاله هٰذا في قصائده، كقصيدته التي خَمَّسَ فيها قصيدة قطري بن الفجاءة:

أقول لها وقد طارت شعاعا من الأبطال ويحك لا تراعي

وقصيدته النونية:

سلوا بعض تسآلي الورى عنكم عني فقد شاهدوا ما لم يروا منكمُ مني[2]

وأخرى كتب بها إلى صديق يعاتبه على خلف وعده في اشتراكه بهٰذه المعركة[3].

وبذٰلك تكون هٰذه الواقعة (الزوراء) و(أخذ الثأر) من أهم المحفزات في حياة الشاعر لنظم القصائد الحماسية، في الفخر والاعتزاز بأمجاد قومه (السنبُسيين الطائيين).

غير أن هٰذه الأوضاع والقلاقل والمحن التي واكبت حياته وهو في ريعان شبابه قد فرضت على نفسه الطامحة أن يرحل عن أهله وأقرانه، وأن ينتجع مكاناً آخر كما سبق أن أشرنا إلى ذٰلك، فقصد (ماردين)، وهي قلعة فتحت في زمن عمر بن الخطاب

---

(١) الديوان: ١٥.
(٢) الديوان: ١٨.
(٣) الديوان: ١٩.

ـ رضي الله عنه ـ، وكان عليها السلطان الملك المنصور نجم الدين أبو الفتح غازي بن أرتق.

وكان الصفي الحلي قد تعرّف هٰذه الديار عن طريق اشتغاله بالتجارة، فكان يرحل إلى مصر والشام وماردين وغيرها ثم يرجع إلى العراق، وكان في غضون هٰذه الرحلات يمتدح سلاطين هٰذه البلدان وملوكها وأعيانها.

ويبدو أنه وجد في حكام ماردين بغيته التي كان ينشدها، وإلا فقد مدح غيرهم، كالسلطان الناصر بن قلاوون[1]، كما مدح ابن الأثير، كاتب السر في مصر[2].

ومن مدحه للناصر قوله:

أسبلن من فوق النهود ذوائباً ... فتركْنَ حبات القلوب ذوائبا
وجلون من صبح الوجوه أشعةً ... غادرن فود الليل منها شائبا
بيضٌ دعاهُنَّ الغبي كواعباً ... ولو استبان الرشد قال: كواكبا

حتى قال في مخلصها[3]:

عاتبته فتضرجت وجناته ... وأزور ألحاظاً، وقطّب حاجبا
فأراني الخد الكريم فطرفه ... (ذو النون) إذ ذهب الغداة مغاضبا

وأراد بذي النون: الحاجب، تشبيهاً له بالقوس، لأن النون مقوسة (ن)، وذو النون: يونس بن متى، وإشارته في الشطر الثاني إلى الآية: ﴿وذو النون إذ ذهب مغاضباً فظن أن لن نقدر عليه فنادى...﴾.

وكثيراً ما كان أهله وأخوته يلحون عليه أن لا يترك قبيلته وأقرانه، إلا أنه كان شديد الرغبة في الاستقرار والدعة، والعيش السليم، ويبدو أنه وجد ضالته في ملازمته

---

(١) «فوات الوفيات»: ١/٥٨١، و«النجوم الزاهرة»: ٦/٢٧٥.
(٢) «فوات الوفيات»: ١/٥٨٠.
(٣) «فوات الوفيات»: ١/٥٨١-٥٨٢.

سلاطين ماردين، والنزول عندهم، ويبدو من رسائله الشعرية التي كان يراسل بها إخوته وأصدقاءه أنه تبرّم بالحياة القاسية في العراق، وأنه لن يرجع إلى تلك الحال التي وجد قومه عليها، ومن ذلك قصيدته:

قليل إلى غير اكتساب العلى نهضي ومستبعد في غير ذيل التقى ركضي

يرسلها إلى أحد أقاربه من ماردين، ويعرض فيها بمدح سلطانها الملك المنصور[1]. وكتب بثانية إلى أحد بني عمه من ماردين ـ أيضاً ـ يقول فيها:

كلُّ الذين غَشُّوا الوقيعةَ قُتّلوا مَا فازَ منْهم سالماً إلا أنا
ليس الفرارُ عليَّ عاراً بَعْدَما شَهِدُوا ببأسِي يوم مشتبك القنا
إن كنت أول من نأى عن أرضهم قد كنتُ يومَ الحرب أول من دنا
ابعَدْتُ عن أرضِ العراق ركائبي علماً بأن الحزم نعم المقتنى
جبت البلادَ ولست متخذاً بها سكناً ولم أرضَ الثريّا مسكنا
حتى أنختُ بماردينَ مطيتي فهناك قال لي الزمان لي الهنا
في ظل مَلْك مذ حَلَلت بربعه أمسى لسان الدهر عني ألكنا[2]

فالشاعر من خلال هٰذه الأبيات صريح بأنه ترك العراق فراراً من الأوضاع الشاذة التي تعيشها قبيلته، بعد أن أبلى مع أعدائه البلاء الحسن، وبعد أن أضمر له أعداؤه سوء النية لو ظفروا به. فلا بد له من أن يعيش بمنأى عن يد أعدائه، سالماً من أذاهم. ولقد قنع بأن قلعة ماردين هي حصن له، ولأنفاسه الشاعرية يزجيها لسلاطين (الأراتقة). وبذلك استطاع الشاعر (الحلي) أن يضع فيهم بثلاثة شهور ديواناً كاملاً في تسعة وعشرين حرفاً ببناء تسع وعشرين قصيدة أرتقية، اسماها (الأرتقيات) نسبة إليهم. وهٰذه الأرتقيات بناها على حرف من حروف المعجم يبتدىء البيت به، وينهي قافية القصيدة به، ومن ذلك قوله في قصيدته ـ على قافية الجيم ـ التي أشار إليها ابن حجة في

---

(١) الديوان: ٢٠.

(٢) الديوان: ٢١.

«خزانته»، وهو يتحدث عن المطالع، وينتقده عليه:

«وكذلك مطلع الشيخ صفي الدين الحلي في قصيدته الجيمية التي هي من جملة القصائد الأرتقيات، التي امتدح بها الملك المنصور صاحب ماردين:

جاءت لتنظر ما أبقَتْ من المُهَجِ فعطّرَتْ سَائِرَ الأرجاء بالأرجِ

فالشطر الثاني ليس من جنس الشطر الأول، فإن الشطر الأول في الطريق الغرامية ليس له مثيل»[1].

لقد أنعم المصريون على الشاعر كثيراً، وشملوه بإنعامهم وبرّهم، ولكن إصراره على التغرب، وهجر الوطن كان رائده دائماً، ولقد عاد مرة من مصر وهو مشمول بالإنعام، فكتب إلى أخيه جواباً على نهيه إياه في التغرب[2]:

فَقُل لمسفّهٍ في البعد رأيي وكنت به أصح الناس رايا
عذرتك لم تذق للعز طعماً ولا أبدى الزمان لك الخفايا
فما حر يسيغ الضيم حراً ولو أحمت عزائمه الرمايا
لذلك مذ علا في الناس ذكري رميت بلاد قومي بالنسايا
ولست مُسَفِّهاً قومي بقولي ولكن الرجال لها مزايا

إن مقام الشاعر في ماردين، جعله ينتهز المناسبات فيضعف فيهم المدح، ويتدخل في تحريضهم على قتال العدو، ويستنجد بهم على تحقيق مطاليبه. وغير ذلك مما كانت تدعو إليه الحال، وهذه صور من المواقف التي استقيناها من ديوانه:

فله قصيدة يُحرّضُ فيها السلطانَ الملكَ المنصور نجم الدين غازي بن أرتق ـ الذي وضع فيه الأرتقيات ـ صاحب ماردين على حضوره حصار قلعة أربل حين أرسل الجيوش، ولم يحضرها سنة (٧٠٢هـ): [من الرجز]:

---

(١) «الخزانة»: ٧.

(٢) الديوان: ٢٧ـ٢٨.

أَبْـدِ سنـا وجـهـكَ من حجـابـهِ فالـسـيف لا يقـطع في قِرابـهِ
فارمِ ذرى قلعَـتـهـم بقـلعـة تقـلع أسَّ الـطود من ترابـه

وهي قصيدة طويلة تقع في ثلاثة وخمسين بيتاً[1]، وكانت النتيجة هي فتح إربل.

وقال يحرض السلطان الملك الصالح شمس الدين أبا المكارم بن السلطان الملك المنصور على خلاص ماله من لصوص نقبوا داره، وأخذوا ما بها، واحتموا بنائب له فحماهم، واستخدمهم لديه[2]:

خطبٌ لسـان الـحـال فيه أبـكـم وهـوى طريقُ الـحـقّ فيه مظلمُ
وقـضـيةٌ صَمَـتَ الـقـضـاةُ ترفـعـاً عن فعـلهـا والـخـصـم فيهـا يحكم

وقال من أخرى يحرض السلطان الملك الصالح على التحرز من المغول ومنافستهم، عند اختلافهم، واضطراب أحوالهم، ويهنئه بعيد النحر[3]:

لا يمتطي المجد من لا يركب الخطرا ولا ينـال الـعـلا من قدم الـحـذرا
ولا ينـال الـعـلا إلا فتـى شرفـت خلالـه فأطـاع الـدهـر ما أمـرا
كالصـالـح الملك المرهـوب سطوتـه فلو توعـد قلب الـدهـر لانـفـطرا
من آل أرتـق الـمـشـهـور ذكـرهـم إذ كان كالمسـك إن أخفيتـه ظهـرا
فاسعـد بعيدك ذا الأضحى وضحّ به وصـلِّ صلِّ لرب الـعـرش مؤتـمِـرا
وانحـر عداك فبـالإنعـام ما انصلحوا إن كان غيرك للأنـعـام قد نحـرا

ولست أريد أن أستقصي في هٰذا المجال موقع الشاعر من الأرتقيين وإزجاء مديحه لهم، وتحريضه على قتال أعدائهم، ولعل ما لقي عندهم من البر والإكرام وحياة النعيم والسلام، هو الذي جعله يلتصق بهم هٰذا الالتصاق، على الرغم من أنهم لم يكونوا عرباً، بل كانوا من بقايا الأتراك السلاجقة الذين حكموا العراق حقبة من الزمن.

---

(١) الديوان: ٣٧-٣٩.
(٢) الديوان: ٤١.
(٣) الديوان: ٤٣-٤٥.

لقد اتصل الشاعر خلال هٰذه الحقبة من حياته بالجم الغفير من الأفاضل والأدباء، والأعيان، فاجتمع بابن سيد الناس، وأبي حيان، والصدر شمس الدين عبداللطيف الـذي كان يعتقد أنه ما نظم الشعر أحد مثله مطلقاً. كما اجتمع هو والفيروزآبادي (٨١٧هـ) سنة (٧٤٧هـ) فقال فيه[١]: «اجتمعت سنة سبع وأربعين وسبعمئة بالأديب الشاعر، صفي الدين بن سرايا الحلي ـ رحمه الله ـ بمدينة بغداد، فرأيته شيخاً كبيراً له قدرة تامة على النظم والنثر، وخبرة بعلوم العربية، والشعر، فغزله أرق من النّسيم، وأدقّ من المحيا الوسيم...».

وكانت هٰذه الصفة، أعني شاعريته المتميزة مثار إعجاب كل الذين عاصروه، أو من جاء بعده، يقول الكتبي فيه[٢]: «الإمام العلامة القدوة الناظم الناثر، شاعر عصره على الإطلاق، أصبح راجح الحلي دونه ناقصاً».

وراجح الحلي هٰذا أقدم من صفي الحلي كان من مداح الدولة الأيوبية بمصر، توفي سنة (٦٢٧هـ)[٣]. كان لراجح هٰذا قدم راسخة في نظم الشعر، مشهوراً في عصره، فحين برز الصفي بزّه وأخذ مكانه، يقول الكتبي ـ أيضاً ـ: «وكان ـ يعني الحلي راجحاً ـ سابقاً، فعاد على كعبه ناكصاً، أجاد القصائد المطولة والمقاطع، وأتى بما أخجل زهر النجوم في السماء، كما قد أزرى بزهر الربيع، تطربُكَ ألفاظُهُ المصقولة، ومعانيه المعسولة، ومقاصدُه التي كأنها سهام راشقة، وسيوف مَسْلولة»[٣].

رحل الحلي ـ شاعرنا ـ إلى العراق في غضون عام (٧١٢هـ)، وحصل للأراتقة ـ وهو بعيد عنهم ـ أن توفي الملك المنصور، وقام بعده الملك العادل بعد أبيه، ولكنه لم يلبث إلا قليلاً، فتوفي بعد سبعة عشر يوماً من سلطنته، فتقلد أمر السلطنة بعده أخوه شمس الدين أبو المكارم الذي نظم فيه القصائد (الصالحيات). ولم يصل الخبر

---

(١) «البلغة»: ٦٠.

(٢) «فوات الوفيات»: ١/ ٥٨٠، (ط: محمد محيي الدين).

(٣) «تاريخ مصر»: ابن إياس: ١/ ٨٠، و«النجوم الزاهرة»: ٦/ ٢٧٥، و«شذرات الذهب»: ٥/ ١٢٣.

بوفاة المنصور صاحب ماردين لصفي الدين الحلي إلا بعد مرور مدة غير قليلة، فقصد ماردين، للتعزية، فوجد أنّ الأمر قد انتهى، وأن أموراً قد حصلت دون أن يعلم شيئاً عنها، فقدم قصيدة في مدح السلطان الملك المنصور الصالح شمس الدين أبي المكارم، وكان قد ولي بعد وفاة أخيه الملك العادل يقول فيها[1]:

دبت عقارب صدغه في خده ... وسعى على الأرداف أرقم جعدِه

. . . . . .

قرن يخاف قرينه من قربه ... أضعاف خوف محبه من بعده
أرمي الحصى من حافريه بمثله ... وأروع ضوء الصبح منه بضده
وأظل في جوب البلاد كأنني ... سيف ابن أرتقَ لا يقر بغمده
الصالح الملك الذي صلحت به ... رتب العلاء ولاح طالع سعده

ثم يشير إلى أنه إنما تولى السلطنة بعد أخيه لشد أزره:

وإليك كان الملك يطمح بعده ... يبغي جواباً لو سمحت برده
وشددت أزر أخيك يا هارونه ... لما توقع منك شدّة عضده
حتى أحاط بنو الممالك كلها ... علماً بأنك قد وفيت بعهده

ثم يقول:

مرحى لمجدك عن وداد خالص ... وسواي يضمر صابه في شهده
لا كالذي جعل القريض بضاعةً ... متوقعاً كسب الغنى من كده

وفي قصيدته الرائية التي مدحه بها وهنأه بالملك بعد أخيه، يعتذر له عن الانقطاع عنهم مدة، وكان قد نظمها مهنئاً بعيد الفطر المبارك، يقول في مطلعها[2]:

من نفحة الصُّور أم من نفخةِ الصُّوْرِ ... أحييتَ يا ريحُ ميتاً غير مقبور

وهي طويلة من قصائده (الصالحيات) يقول في تخلصها إلى مدح الملك

(١) الديوان: ٩٠-٩٣ .
(٢) انظرها في الديوان: ٩٣-٩٧.

الصالح:

وقـائـل إذ رأى الـجـنـات عالـيةً ... والـحـورَ مقـصـورةً بين الـمـقـاصير:
لمنْ ترى الملك بعـد الله ! قُلْتُ له ... مقـالَ مُنْـبَـسِطِ الآمـال مَسْـرور:
للصّـاحب التـاج والقصـر المشيّد مَنْ ... أتـى بعَـدْلٍ برحْـبِ الأرض منـشـور
فقـال: تَعْني به كِسْـرى؟ فقلتُ له: ... كِسـرى بنَ أرتقَ لا كسـرى بن سابور
الـصـالـح الـملك الـمشكـور نائلهُ ... ورُبَّ نائـلِ مَلْكٍ غيرِ مشـكـورِ

وحين يصل إلى الاعتذار يوجه أبياتاً غاية في الرقة والدماثة، فيقول:

أدعـوك دعـوةَ عَبـدٍ وامـقٍ بكـمُ ... يا واحـدَ العَصْـر فاسْمع غير مأمـورِ
لا أدَّعـي العُـذْرَ عن تأخيرِ قصـدِكمُ ... لَيْسَ الـمحـبُّ على بُعْـدٍ بمعـذور
بل إن غدا طولُ بُعْـدي عن جنـابكمُ ... ذَنْبي العـظيمَ فهـذا المـدحُ تكفيري
رَقَّـتْ لِتُـعـربَ عن رِقِّـي لمـجـدكمُ ... حُبّـاً، وطـالتْ لتَمْحـو ذَنْبَ تقصيري

ويبدو لي أنّ الحلي لم يمل عن الأرتقيين حباً في مفارقتهم، ولكنه كان يتطلّع إلى توسيع دائرة صِلاته بسلاطين العصر وأمرائه، ولذلك كان يسافر إلى مصر، ويخرج إلى الشام، ويرحل إلى العراق ثم يعود إلى الأراتقة، وفي جميع حالاته هٰذه يرسل بقصـائده إليهم: في التهنئة، والمديح، واستغلال المناسبات المفرحة، ليزج بشعره إليهم فيها، وفي عام (٧١٩هـ) ترد في الديوان قصيدة يمدح بها الملك الصالح، وكان قد اقترح عليه (الصالح) الوزن والروي، يشكو فيها الحلي أمراً جرى له، بقول فيها[1]:

يا نسـمـة لأحـاديث الـحمى شرحت ... كم من صدور لأربـاب الهوى شرحَتْ

يقول خلالها، وهو يعرض محنته:

يا باذل الـخـيل عفـواً بعـد عزتـهـا ... ومـا جنت في الوغى ذنباً ولا اجترحت

---

(١) الديوان: ٩٩-١٠١.

ودعتكم وثنائي لا يودعكم ... وسرت لا بعدت داري ولا نزحت
أشدو بمدحكم حباً وبي محن ... لو أن أيسرها بالوُرق ما صدحت
ما إن أفوه بشرح في المقال لها ... لكنها بلسان الحال قد شرحت
لا أذمم الدهر في أمر رميت به ... ولا أقول حصاة الخط ما رشحت
لئن نأت عنكم يوماً جوانحنا ... فإن أرواحنا في ربعكم جنحت
وكل يوم مقالي عند ذكركم ... يا ساكني السفح كم عينٍ بكم سَفَحَتْ

ظلت هٰذه العلاقة وثيقة بين الشاعر والأرتقيين، يذكرهم أنّى سافر، وأينما حلّ، وفي سنة (٧٢٠هـ) دخل الشام وبعث إلى السلطان الصالح بقصيدة يمدحه فيها[١]:

نمّ بسرّ الروض خفق الجناح ... واقتدح الشرف زناد الصباح

وحين وصل الصالح إلى الحجاز عام (٧٢٣هـ)، كان الشاعر في مصر، فبعث إليه بقصيدة مطلعها[٢]:

إني ليطربني العذول فأنثني ... فيظن أنّي عن هواكم أنثني

وفي سنة (٧٢٦هـ) دخل مصر، واجتمع بالقاضي علاء الدين بن الأثير، كاتب السر[٣]، ومدحه كما مدح السلطان الملك الناصر بقصيدة وازى بها قصيدة المتنبي التي أولها:

بأبي الشموس الجانحات غواربا ... اللابسات من الحريرِ جلاببا[٤]

ومطلعها:

أسبلن من فوق النهود ذوائبا ... فتركن حبات القلوب ذوائبا

---

(١) الديوان: ١٠٧.
(٢) الديوان: ١٠٨.
(٣) «الوافي» للكتبي: ١/٥٨٠.
(٤) «ديوان المتنبي»: (دار صادر): ١٠٩، وقصيدة الحلي في الديوان: ص٥٩.

يقول فيها:

وغـربـن في كلل فقـلت لصـاحبي: (بـأبي الشمـوس الجـانحـات غواربـا)

وهي قصيدة من أجمل شعره المدحي، ولكنه يظل مرتبطاً بالصالح، فيكتب إليه بأبيات:

أجـرّدُ كي أجـردَ سيف مدحـي فينـبـو عن سواك به لسـانـي
وأنـظم مدح غيرك والـقـوافـي تـعـضُّ عليَّ أطـراف الـبـنـان
فأظـهـر حيرة في بسط عذري وأخـفـي ما يحـن لكـم جنـانـي
فإن أفـعـلْ تألـمـت الـمـعـالي وإن أنـكُـلْ تظلمـت الـمـعـانِي[1]

وفي الأبيات ما يدلّ على أنّه لا يريد أن ينقطع عن الأراتقة، وأنه يأمل دائماً في الرجوع إليهم، وإن طوّحتْ به الأيام، وفي الديوان مقطعات قصيدة يبعثها إليه، يتضح من خلالها شدة ميله إليهم، وارتباطه بهم[2]، وحين أحسّ الشاعر بهٰذا البعد والانقطاع عنه زجّ إليه قصيدة طويلة يمتدحه فيها، ويعتذر من الانقطاع عنه، مطلعها[3]:

ليالـي الـحـمـى ما كنـت إلا لآليا وحـيد سروري بانـتـظامِـكِ حاليا

ويقول فيها:

ومـا ليّ لا أسـعـى بمـالـي ومُهْجَتي إلـى من به استـدركت روحي ومـاليا
إلـى ملك يخـفـي الـمـلوك إذا بدا كمـا أخفت الشمس النجـوم الـدراريا

ولكنّه دفع بقصائد رائعة في مدح (قلاوون) في مصر، فضلاً عن قصيدته التي عارض بها المتنبي، ومن ذٰلك قصيدته التي يمدحه فيها عند كسر الخليج:

خلع الـربـيع على غصـون البـانِ حللاً فواضـلهـا على الـكـثـبـان

---

(١) «ديوان الحلي»: ١١٤.

(٢) انظر الديوان: ص١١٤-١١٨.

(٣) الديوان: ١١٨-١٢١.

ونمت فروع الدوح حتى صافحت كفل الكثيب ذوائب الأغصانِ

يقول فيها:

حتى إذا كسر الخليج وقسمت أمواه لجته على الخلجانِ
ساوى البلاد كما تساوى في الندى بين الأنام مواهب السلطانِ
الناصر الملك الذي في عصره شكر الظباء صنيعة السرحان
ملك إذا اكتحل الملوك بنوره خروا لهيبته إلى الأذقانِ[1]

ولم يقف شعره على الناصر قلاوون بل مدح معه ثلاثة سلاطين ذكرهم في خطبة ديوان (الناصريات)، وفي الديوان قصائد ومقطعات في مدحهم.

و(الناصريات) قصائد مصرية، ولكن (المنصوريات) قصائد أرتقية، بدأها كما سبقت الإشارة بمدح الملك المنصور السلطان نجم الدين أبي الفتح غازي بن أرتق.

والشاعر في جميع ما تقدم من حياته، كان قد شغل نفسه بالمديح المادي، وبالصِّلات بالسلاطين والملوك، ولم يكن الاتجاه الديني أو الروحي قد ظهر في شعره، إلا في بعض المقطعات القصار في آل البيت أو صحابة رسول الله ـ ﷺ ـ، وليس بين أيدينا ما يعطينا الوقت الذي نظم فيه هٰذه المقطعات، ففي ديوانه إشارات إلى أنه قال في آل الرسول ـ ﷺ ـ[2]:

يا عترة المختار يا من بهم يفوز عبد يتولاهمُ
أُعرف في الحشر بحبي لكم إذ يعرف الناس بسيماهمُ

وقال:

يا عترة المختار يا من بهمْ أَرْجو نَجاتي من عذابٍ أليم
فمن أتى اللهَ بعِرْفانكُمْ (فَقَدْ أَتى اللهَ بِقلبٍ سليم)

(١) القصيدة طويلة في الديوان: ٦٢ـ٦٥.
(٢) الديوان: الصفحات ٥٥ـ٥٩.

وقال في صحابة الرسول ـ ﷺ ـ:

قيل لي تعشق الصحابة طرّاً أم تفردت منهم بفريق
فوصفتُ الجميع وصفاً إذا ضوّع أزرى بكلّ مسك سحيق
قيل هٰذي الصفات والكل كالـ ـدّربات ؟ يشفي من كل داءٍ وثيقِ
فإلى من تميلُ ؟ قلتُ: إلى الأر بع لا سيما إلى (الفاروق)

غير أننا نعلم أنه دخل مصر سنة (٧٢٦هـ)، وكان دخوله مصر في هٰذه السنة أنه قصد الحج، وقد قال هو نفسه عن زيارته لمصر في هٰذه السنة: «فلما منّ الله عليّ بقضاء حجة الإسلام، وزيارة قبر النبي عليه السلام، قذف بي خوف بلادي إلى الديار المصرية، وأهلت بالمثول في الحضرة الشريفة الملكية الناصرية..»[1].

ومن هنا نستطيع تحديد الوقت الذي نظم فيه قصيدته الرائية التي مدح بها النبي محمداً ـ ﷺ ـ وهو في المدينة المنورة:

كفى البدر حسناً أن يقال: نظيرها فيُزهى. ولكنا بذاك نضيرها
وحسبُ غصونِ البانِ أن قوامَها يُقاسُ به ميّادُها ونَضيرها

ومن خلال هٰذه القصيدة النبوية يلمح القارىء أن ثمة معاناة قاسية كان يعيش الشاعر في أجوائها، وأنه يحمل في طيات نفسه همّاً ثقيلاً وعسراً من الحياة، وضيقاً من الدنيا، ولم يستطع التعبير عن ذٰلك كله إلا أمام قبر رسول الله ـ ﷺ ـ، فهو يقول:

فلو تحمل الأيام ما أنا حامل لما كاد يمحو صبغة الليل نورها
سأصبر إما أن تدور صروفها عليّ وإما تستقيم أمورها
فإن تكن الخنساء إنيَ فخرها وإن تكن الزباء إنّي قصيرها

ثم ينتقل إلى ذكر المقصود ـ عليه السلام ـ ببراعة، مخلص:

وعاج بها عن رحل عاج دليلها فقامت لعرفان المراد صدورها

---

(١) مقدمة الديوان: (صادر): ١١.

غدت تتقاضانا المسير لأنها ... إلى نحو خير المرسلين مسيرها
ترضى الحصى شوقاً لمن سبّح الحصى ... لديه وحيّى بالسلام بعيرها
إلى خير مبعوث إلى خير أمة ... إلى خير معبود دعاها بشيرها

حتى يقول فيها:

أيا صادق الوعد الأمين وعدتني ... ببشرى فلا أخشى وأنت بشيرها
بعثت الأماني عاطلاتٍ لتبتغي ... نداك فجاءت حالياتٍ نحورها
إليك رسولَ الله أشكو جرائماً ... يوازي الجبالَ الراسيات صغيرها
كبائر لو تبلى الجبال بحملها ... لدكت ونادى بالثبور ثبيرها
وغالب ظني بل يقيني أنها ... ستمحى وإن جلت وأنت سفيرها
وبين يدي نجواي قدمت مدحة ... قضى خاطري ألا نجيب خطيرها
تروم بها نفسي الجزاء فكن لها ... مجيزاً بأن تمسي وأنت مجيرها
فلِابن زهير قد أجزت ببردةٍ ... عليك فأثرى من ذويه فقيرها
أجِرْني أجزْني واجزِني أجر مدحتي ... ببردٍ إذا ما النار شبّ سعيرها
بمدحك تمت حجتي وهي حُجَّتي ... على عصبةٍ يطغى عليّ فجورها[1]

ولقد تركت معظم أبيات هٰذه القصيدة لطولها، ولكن الذي يهمنا منها أنه يظهر شكواه، ويعترف بذنوب أثقلت كاهله، وأنه يرجو من رسول الله ـ ﷺ ـ أن يقبل الله تعالى بمدحه منه إنابته وتوبته على الرغم من عظم الجرم الذي يوازي الجبال الراسيات صغيرها.

ونظم الصفي قصائد أخرى في مناسبة مولده ـ ﷺ ـ، ومنها قصيدته:

خمدت لفضل ولادك النيران ... وانشق من فرح بك الإيوان[2]

وفي هٰذه القصيدة يتجرد الشاعر من أموره الدنيوية، ويسوق معاني المديح النبوي

(١) الديوان: ٤٦ـ٥٠.
(٢) الديوان: ٥٠ـ٥٢.

تترى، ويضمنها أحداثاً واكبت سنة الميلاد الشريف، ومكان الرسول ـ ﷺ ـ بين إخوته من الأنبياء والرسل ـ عليهم السلام ـ. وفي أواخرها يعترف بقصوره عن أن يحيط بكل صفاته وأخلاقه ـ ﷺ ـ، فيقول:

ولو انني وفّيت وصفك حقه ... فنِيَ الكلام وضاقت الأوزانُ
فعليك من رب السلام سلامه ... والفضل والبركات والرضوان
وعلى صراط الحق آلِك كلما ... هب النسيم ومالت الأغصان
وعلى ابن عمك وارث العلم الذي ... ذلت لسطوة بأسه الشجعان
وعلى صحابتك الذين تتبعوا ... طرق الهُدى فهداهم الرحمٰن
وشروا بسعيهم الجنان وقد دروا ... أن النفوس لبيعها أثمان

ثم ينهي القصيدة بالغرض النفسي الذي لا ينفك الإنسان يذكره أمام شفيع الأمة، ومنقذها ـ ﷺ ـ، فيقول:

أشكو إليك ذنوب نفس هفوها ... طبع عليه ركّب الإنسان
فاشفع لعبد شانَهُ عصْيانه ... إن العبيد يشينها العصيان
فلك الشفاعة في محبيكم إذا ... نصب الصراط وعلّق الميزان
فلقد تعرّض للإجازة طامعاً ... في أن يكون جزاؤه الغفران[1]

وأما قصيدته التي استعان منها بالبيت:

صلى عليك إلٰه العرش ما طلعت ... شمس النهار ولاحت أنجم الغسق

في بديعيته الكافية، فمطلعها:

فيروزج الصبح أم ياقوتة الشفق ... بدت فهيجت الورقاء في الورق

وهي قصيدة مدحية في الرسول ـ ﷺ ـ ذكر كعادته في المديح النبوي الرسول

---

(١) الأصوب أن يقول: (جزاءه الغفران) بنصب جزاء؛ ليكون (الغفران) اسم (يكون)، ولكنه سها، أو هو خطأ مطبعي.

- ﷺ - وصفاته وأخلاقه، وموقعه بين الرسل - صلوات الله عليهم -، وفي آخرها يعد الرسول - ﷺ - بأنه سوف يصفيه المدح ما دام حياً، فيقول:

فلا أخلّ بعذر عن مديحكم ما دام فكري لم يرتج ولم يعق
فسوف أصفيك محض المدح مجتهداً فالخلق تفنى وهٰذا إن فنيت بقي[1]

ولقد صدق الشاعر وعده مع رسول الله - ﷺ - حين وضع قصيدته (الكافية البديعية) فيه، فقد تأخر نظمها بعد هٰذا الزمن، وقد أشار إلى القصيدة القافيّة المذكورة في شرح بيت (التفصيل) من الأنواع البديعية حين قال:

(صلى عليه إلٰه العرش ما طلعت)
شمسٌ وما لاح نجم في دجى الظلم

قال في الشرح: «وصدر بيت القصيدة هو لي بحاله في قصيدة أخرى في مدح النبي - ﷺ - أولها:

فيروزج[2] الصبح أم ياقوتة الشفق بدت فهيجت الورقاء في الورق

والبيت الذي أتيت بصدره منها لئلا تخلو القصيدة من هٰذا النوع هو:

صلى عليه إلٰه العرش ما طلعت شمسُ النهار ولاحت أنجم الغسق»[3]

ثم نعود بعد هٰذه الوقفة الموجزة مع الصفي، وهو يزجي قصائده الدينية إلى النبي - ﷺ -، وصحابته وآلِه - رضي الله عنهم - إلى بقية عمره الذي قضاه بين سلطان مصر، وسلطان ماردين، وبلده العراق.

ويبدو أن السنوات التي تلت عودته من الحج، أي من بعد سنة (٧٢٦هـ) جعلته

---

(١) الديوان: ٥٤.

(٢) في الديوان: (ط: العلمية): في روزج.

(٣) انظر فيما يأتي نوع (التفصيل) من البديع، وانظر «نفحات الأزهار»: ٣٠٤، و«خزانة» ابن حجة: ٢٢٢.

ينسج حبال الصلة بين ملوك مصر وماردين بشكل ذكي، ففي الوقت الذي نراه يلازم السلطان قلاوون، يبعث سنة (٧٢٧هـ) بقصيدة إلى سلطان ماردين، وهو في دمشق يعتذر له عن الانقطاع[١].

ثم بأخرى يمدحه ويهنئه بعيد النحر، ويصف ليلة مضت له، يقول في مطلعها:

أهـلاً ببدر دجى يسعى بشمس ضحى  بنـورهِ صبغـة الـليل البهيم محـا[٢]

ثم يمدحه بقصيدة كافية عقيب مال تلف له بماردين، ويعرض بذلك سنة (٧٣٠هـ):

أيا ملك الـعصـر الـذي شاع فضله  ويا ابن ملوك العـرب والعجم والتـرك

وينظم له قصيدة موشحية يهنئه بعيد الفطر سنة (٧٤١هـ) بوزن الدوبيت:

لمـا شدت الـورق على الأغـصـان بين الـورق
ماسـت طربـاً بهـاغـصـون الـبـان كالـمـغـتـبـق
الـطيـر شـدا  ومنـظـر الـزهـر بدا
والـقـطـر غـدا  يولـيه جوداً ونـدا
والـجـون حـدا  ومـدّ في الجـو ردا
والـنـرجس جَفـن طرفـه الـوسـنـان لم ينـطبـق
بل بات إلـى شقـائـق الـنـعـمـان ساهـي الـحدق[٣]

ولم يتخل عن ذكره ومديحه، فأرسل إليه من بغداد مدحةً، يقول:

ما هزنـي الـريح إلا هزنـي الـطرب  إذ كان للقـلب في مر الصبـا أَرَبُ[٤]

---

(١) الديوان: ٩٧.
(٢) الديوان: ١٠٣.
(٣) الديوان: ١٢٥.
(٤) الديوان: ١٢٧.

وطـال مكث الصفي في مصـر حتى سنة (٧٣٩هـ)، وكانت العلاقة بين مصر وسلاطين ماردين قد قويت، بفعل المخاطر المغولية التي كانت تواجههم، وكان لوجود الصفي بين الإمارتين أثر في تقريب وجهات النظر، وتوثيق العلائق بينهما.

وموقع الصفي الحلي في مصر ـ في هٰذه السنوات ـ كان موقعاً متميزاً، فقد حظي برعاية سلطان مصر، ورئيس وزرائه، ما لم يحظ غيره بها. وقد ذكر هو نفسه هٰذه الرعاية، فقال:

«وشملني من الإنعام ما فاجأني ابتداءاً، ولم أملك له خبَراً،ألزمتني المروءة بمكافأة تلك الحقوقِ، ورأيتُ كفرانها كالعقوق.. فنظمت في معاليه ما طاب لفظه ومعانيه، وظهرت آيات القوى فيه حسن تمكن سبكهِ وقوافيهِ. فلما صادفت وسائلي فيه قبولاً، وهبت ريحُ سعدها قبولاً، أشار إلي رئيس وزرائه، وزعيم كتاب إنشائه عن إشارتِهِ العالية أن أجمع لَه جُزْءاً من جدّ شعري وهزلِهِ، ورقيق لفظي وجَزْلِهِ.. ليكون ديواناً للمحاضرةِ، ومجموعاً للمذاكرة.. فآخترتُ منه ما يحب ويبتغي، ورتَّبْتُه على ما يجب وينبغي. واقتضى الأدب أن أسِمَ الكتاب بوسمِهِ، وأُشَرِّف باب المديح بتقديم لقبهِ الشريف واسمِهِ. فصيرت وليَّ المديح كوسمِيّهِ، وختمت به أبناء المدح كختم الأنبياء بِسَمِيِّهِ.

وجعلت فصول الأبواب فُروعاً تتبع أصلاً، وجملة الكتابِ اثني[1] عشر باباً تشتمل على ثلاثين فَصْلاً..»[2].

فكان هٰذا الديوان الذي بين أيدينا اليوم.

وقد طبع أكثر من طبعة، من سنة ١٢٨٣هـ مروراً بالسنوات ١٢٩٧هـ و١٣٧٥هـ. وهٰذه الأخـيرة أشار ناشرها في مقدمتها إلى أنه قابل بها النسخ المطبوعة سابقاً. ثم الأخيرة التي طبعت عام ١٣٨٢هـ/١٩٦٢م في دار صادر ـ بيروت.

---

(١) جاء في عبارة الأصل: اثنا عشر، وهي أيضاً صحيحة إذا جعلنا الواو استئنافية أو حالية.

(٢) مقدمة الديوان: ٧ـ٨.

وحين ترك الشاعر مصر راجعاً إلى العراق لم ينس أن يضع بَيْنَ يدي السلطان «ابن قلاوون» قصيدة عصماء يمدحه بها، ويشيد بمكانهِ بين السلاطين. ثم يشير في أخرياتها إلى رحيله عن مصر، ويعتذر له عن هٰذا الرحيل الذي اضطر إليه بقوله[1]:

يا ذا الـذي خطب المـديح سماحـه ... فنـداه قبـل نداي قد لبـانـي
أقـصـيتـني بالـجـود ثم دعـوتـني ... فنـداك أبـعـدنـي وإن أدنـانـي
ضاعـفـت برّك لي ولـو لم تولـني ... إلا الـقـبـول عطيةً لكـفـانـي
فنـأيت عنـك ولـسـت أول حازم ... خاف الـنـزول بمـهـبط الـطوفـان
علمي بصـرف الـدهـر أخلى معهـدي ... منـي وصـرّف في الـبـلاد عنـانـي
ولـربـمـا طلب الـحـريص زيادة ... فغـدت مؤدية إلـى الـنـقـصـان
فلئـن رحـلت فقـد تركـت بدائـعـاً ... غصبـت فصـول الحكم من لقمـان
فجـميل صنـعـكـم أجـل صنـائعـاً ... وبـديع فضـلكـم أدقّ معـانـي

ومع أننا نقف في ديوان شعره على قصائد لآل أرتق وابن قلاوون وكاتب سره، إلا أن ذٰلك لم يمنعه أن يمتدح سلاطين آخرين، كالسلطان الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل ابن الملك الأفضل ابن أيوب صاحب (حماة) عند وروده إليها وقد كان اقترح عليه بحراً وقافية، فنظم فيهما هٰذه القصيدة:

لا راجـع الـطرف باللقا وَسَـنَـهْ ... إن ذاقَ غمـضـاً من بعـدِكم وسِنَـهْ
طال على الـصـب عمـر جفـوتـكـم ... فكـلُّ يومٍ من الـفـراقِ سَنَـهْ

يقول فيها:

ولـو بمـدح الـمـؤيد اعـتـبـروا ... لبـدلـت سيّاتـهـم حَسَـنـهْ
من آل أيوب الـذين لهـم ... حمـاسـة بالـسـمـاح مقـتـرنـه[2]

ومن أولٰئك أيضاً الصاحب المعظم شمس الدين ابن عبشون المستوفي بسنجار،

---

(١) الديوان: ٢-٦٥.

(٢) انظرها في الديوان: ١٣٥-١٣٦.

وقد تلقاه بإقامة، وهدايا، فنظم فيه قصيدة شكر[1]. وكذلك شكر في قصيدة أخرى الصاحب المعظم فخر الدين إبراهيم بن عبدالله المصري صاحب الديوان بحلب[2].

ولم ينس الشاعر وهو في اغترابه وبعده عن أهله ووطنه وحلّته الفيحاء أن يكتب بشعره إلى ذويه وأصدقائه، ويتشوق إلى الحلة الفيحاء، ومن ذلك قصيدته[3]:

أخـلّاي بالـفـيحـاء إن طال بعـدكم ... فأنتم إلى قلبي كسحـري من نحـري
وإن يخـل من تكـرار ذكـري حديثكم ... فلم يخـل يومـاً من مديحكم شعـري

ويتألم خلالها على الربوع الفيحاء التي تركها وراءه فيقول:

بكـيت لفقـد الأربـع الخضـر منكم ... على الـرملة الفيحـاء بالأربـع الخضـر
سقى روضـة السعـدي من أرض بابل ... سحـاب ضحـوك البـرق منتحب القطر

ويذكر خلال هٰذه القصيدة الشيخ العالم مهذب الدين محمود بن يحيى النحوي الحلي، ويصف له حاله في ماردين، وإقبال سلطانها عليه:

فيا أيهـا الشيخ الـذي عقـد حبسـه ... تنزّل منـي منـزل الـروح من صدري
إذا كان ذكـر الـمـرء شيخ حياتـه ... فإن طريف المـال كالـواو في عمـرو
ولـكـن لي في ماردين معـاشـراً ... شددت بهـم لمـا حللت بهـا أزري
أسـوق إلى البحـر الخضم جواهـري ... وأهـدي إلى أبنـاء بابـل من سحـري
فمـنّ فدتـك الـنفس بالعـذر منعمـاً ... عليّ وشـاور حسـن رأيك في الأمـر

لقـد كان تقلب الشـاعـر صفي الـدين الحلي في البلاد كثيراً ينتقل بين بغداد وسوريا، وماردين ومصر والحجاز، فكان يترك في كل هٰذه المواطن آثاراً حميدة من شعره، وحسنِ علاقاته، حتى ودّع الحياة وهو قد نيف على السبعين عاماً من عمره، سنـة (٧٥٠هـ)، فيقـول الكتبي معـاصـرهُ: «وكـانت وفـاتـه في أوائل سنة خمسين

(١) الديوان: ١٥٤ و١٩٢.
(٢) الديوان: ١٥٥.
(٣) الديوان: ١٨١-١٨٣.

وسبعمئة»[1] غير أن المترجمين له قد ذكروا سنوات أخرى في وفاته، كما اختلفوا في المكان الذي توفي فيه.

فقد نقل صاحب «النجوم الزاهرة» أنه توفي في سنة (٧٥٠هـ) كما ذكر الكتبي[2]، في حين نقل ابن حجر في «الدرر الكامنة» سنة (٧٥٢هـ)[3]، ووضع له تأريخاً بحساب الجمل وهو: «الجنة مأوى الصفي» وهو مجموع: «الجنة» ٤٨٤+٥٧ (مأوى)+٢١١ (الصفي) = ٧٥٢هـ، وهي السنة التي أقرَّها الصفدي في «الوافي بالوفيات»[4]، وأكدها كحالة في «معجم المؤلفين»[5]، أما سركيس فقد وضع له في مقدمة اسمه سنتي مولده ووفاته (٦٧٧هـ ـ ٧٥٠هـ)، أي: هو يأخذ بسنة الكتبي التي ذكرها في الفوات[6]. ولكن كتابه «العاطل والحالي» ثبت سنة (٧٤٩هـ) خلافاً لكل ما تقدم. أما خليفة في «كشف الظنون» فقد ذكر أن وفاته كانت سنة (٧٥٧هـ) حين ذكر له بديعيته [7]. ثم ذكر له سَنَةً أخرى بعيدة عن الواقع حين أورد اسم ديوانه في مَسْرد الدواوين، فقال: «ديوان الصفي الحلي عبدالعزيز بن سرايا.. المتوفى سنة ٨٥٩هـ ـ كذا ـ تسع وخمسين وسبعمئة»[8]، فقد أخطأ في عدد القرون رقماً، وصححه كتابةً، وهو ـ لا شك ـ خطأ مطبعي، ولكنه زاد سنتين أخريين على سنة (٧٥٧هـ).

ولعل الأقرب إلى الصحة هي سنة (٧٥٠هـ) كما ذكر الكتبي (٧٦٤هـ)، وأكَّدتها معظم المصادر الأخرى التي ترجمت له، إلا إذا ثبت أنه توفي في أواخر (٧٤٩هـ) كما ذكر في «العاطل». أما مكان وفاته فقد ذكرت مدينة (ماردين) ومدينة (بغداد)

---

(١) «فوات الوفيات»: ١/٥٩٤.

(٢) «النجوم الزاهرة»: ٦/٢٧٥.

(٣) «الدرر الكامنة»: ٢/٣٧١.

(٤) مقدمة «العاطل والحالي» للحلي: ٥، و«البابليات»: ١/١٠٦.

(٥) «معجم المؤلفين»: ٥/٢٤٧.

(٦) «معجم سركيس»: ٧٨٩.

(٧) «الكشف»: ١/٢٣٣.

(٨) «الكشف»: ١/٧٩٧.

والأقـرب إلى الصحة مدينة بغداد، وذلك أن الشاعر في السنوات الأخيرة من عمره اختلف إلى بغداد، وتردد بينها وبين ماردين والشام وبغداد. وفي سنة (٧٤٧هـ) رآه مجد الدين محمد بن يعقوب صاحب «القاموس المحيط» في بغداد، فقال في كتاب «البلغة»: «اجتمعت سنة سبع وأربعين وسبعمئة بالأديب الشاعر صفي الدين بن سرايا الحلي ـ رحمـه الله ـ بمـدينـة بغـداد، فرأيته شيخاً كبيراً. له قدرة تامة على النظم والنثر. . .»[1]. ولعله استقر فيها حتى سنة وفاته[2].

* * *

(١) مقدمة كتاب «العاطل والحالي والمرخص والغالي»: ص٥.

(٢) انـظر: «ريحـانة الأدب»: ٣/٣٤٢، و«شعراء الحلة»: ٣/٢٧٠، و«أمل الآمل»: ٢/١٣٩، و«روضات الجنات»: ٥/٨٠ـ٨٣.



obeikandl.com